

قصة قصيرة

الخمير في كووس العنبر

لا زلت اذكر تلك المحادثة جيدا، كنت امشي مع زميلتي ريما في صف البكالوريا قبل عقد من الزمن في ملعب المدرسة الذي تطله اشجار الكينا والسرو. قالت لي زميلتي لقد قرأت قصيدتك التي علقتها على جريدة الحائط اكثر من عشر مرات، وخرجت باستنتاج مفاده انك تبحث عن امرأة ليست من هذا العالم لتعشقها وتفنى في ذلك العشق كما يفنى الصوفيون في عشقهم الالهي. بعدها ضحكنا كثيرا ثم قلت لها: وهل هناك ما يعيب في ذلك اذا ما صح استنتاجك؟ اذكرها اجابت "اني اشفق عليك يا صديقي الذي يرى ما يوجد في افق المحيط ويعجز ان يرى ما يوجد امامه". اني اتعجب كيف ان شابا ذكيا مثلك لا يعرف ان الجمال اذا لم يتجسد حياة على ارض الواقع يكون بمنزلة السراب الذي لا يروي من ظمأ. كيف تفتش عن فتاة من اوهام لتعشقها وتهبها قلبك وحوالك فتيات من لحم ودم اكثرهن يود ان يبادلنك صداقة او اعجابا او حبا. كيف تبادل واقعا بوهم، ماء بسراب! في كثير من الاحيان اظنك مريضا واقول لنفسك مسكين سليمان كيف سيواجه مرحلته الجامعية بهكذا عواطف وافكار.

كنت اعلم ان ريما تحبني بشغف ولكن كبرياءها كان يمنعها من البوح بذلك.. اذكر في حفلة عيد ميلادها السابع عشر كيف اصرت ان اضع يدي فوق يدها وهي تقطع قالب الحلوى ثم كيف راقصتني السلو بدفء حنون.. احسستها يومذاك وكأنها تستغيث لاحتلها واطير بعيدا فهي تكاد تختنق. يومها انسحبنا برشاقة باتجاه الحديقة وهناك تبادلنا قبلة طويلة محمومة بعدها عدت الى احلامي الشاردة وعادت زميلتي محبطة الى مذاكرتها.. كانت تهز رأسها كلما حادتنني وكأنه مقطوع الامل من ذلك الشاب المبعثر المشتت بذهنه وعواطفه وتصرفاته والذي يصل به التششت الى حدود مملكة ليست من هذا العالم.

ها انا اليوم وبعد ثلاث سنوات من تخرجي من الجامعة في لندن وعلمي في الخليج اسمع صديقي في الشركة حسام يقول لي: سليمان انت تبحث عن امرأة ليست من هذا العالم لتعشقها وتذوب في عشقها حتى حدود الفناء الصوفي. اعقل يا رجل فأنت على اعتاب مشروع زواج، الا تريد ان تؤسس اسرة! هل نسيت ان الانسان لا يكتسب صفة كائن اجتماعي الا عندما يعيش عواطفه واقعا حيا في كنف اسرة. ولما وجدني صامتا لا اجيب اخذ يمازحني فقال: سليمان لماذا لا ترسم لنا بالكلمات امرأة تكون الهة حب وجمال ومثلا اعلى للانوثة الجسدية والعقلية طالما ان عواطفك لا تنجذب لامرأة من لحم ودم، فلماذا لا تسكب عواطفك بقصيدة تصور تلك المرأة الالهة، يومها جمعت عواطفني واحاسيسي وافكاري وتخيلاتني وهلوساتي واخذت ارسم بالكلمات المرأة التي احب. رسمت الوجه والشعر والعينين.. كان الوجه طلقا كأن الشمس قد الفت رداءها عليه.. كان لونه ابيض مشرب بقليل من السمرة. اما العينين فكانتا ينبوعا حياة وعقل وانجذاب الى الاعلى.. كانتا تفيضان بنور يضيء ولا يحرق.. كانتا تدفقان انسا دافئا يسري في سراييني خدرا ناعسا يجعلني استرخي حتى اظن ذاتي نفسا بغير جسد روحا بغير شبح ينتابني شعور بان ذاتي قد تمددت حتى ملأت الاكوان وامتلات من الاكوان. ارنو لتلك العينين الناعستين فاتخيلني امام عشتروت وجها لوجه شعرها يلامس شعري، جبينها يتكئ على جبهتي، ارنبة انفها تداعب ارنبة انفي، وهنا اضيع في متاهات عينيها الساحرتين احس نفسي اسبح في بحر ما له شيطان اصادف مغاور من الزمرد، والياقوت التقى محارا يتفتح

عن لؤلؤ كأنه شمس، يغمرنى الضوء يجرفني تيار النور المتوهج، اتعب تتقطع انفاسي تزداد نبضات قلبي يتصبب العرق من وجهي حتى يلامس عنقي وقميصي احس نفسي مذهولا اهذي اكاد اتهم نفسي بانني انزلت الى عالم المخدرات فانا اهلوس.

صديقي حسام كان الوحيد الذي يعرف سري لانه لازمني كظلي وانا ارسم معالم تلك المرأة بالكلمات.. هو مثلي غاص في اعماق عينيها.. تلاعب بخصلات شعرها نام حالما فوق الرموش السمر.. استضاء حتى التآلق بذلك النور المونس الذي يسيل من الاجفان.. حسام كان صديقا غير وفي يغافلني ويذهب الى مكتبي يفتح الدرج ويخرجها من هناك.. يلاعبها يداعبها يضحك لها يغمزها بخبث ثم يعيدها الى محبتها قبل ان اصل المكتب. صورة الثغر كانت واضحة في خيالي، الابتسامة كتوهج شمس الاصيل على غدير ماء عذب.. اقول لنفسي يجب ان تكون الابتسامة كلمعة برق تخترق الاعماق وتضيء بين الاجنحة او كومضة صاعقة تمزق وتمزق.. ولكني اعود الى صورتي الاولى النابعة من تقاطع الماء مع وهج الشمس. الشفتين وردة جورية حمرتها انضجتها تاوهات امنياتي واشواقي. اما ماء الشفتين فهو خمر عتق في رق صلصاله بقايا رفات عاشقين من غابر الايام. خفت ان اصوغ الثغر بكماله فيأتي حسام خلصة ويرتشف رحيق شفثيه. خفت ان يسبقني حسام فيعري نفسه ويقف تحت شلال وهج الابتسامة. اخيرا صغت الثغر بحماسة ثم الصقت سطور صياغته بقطعة ورق اسود كي يبقى بعيدا عن اعين حسام.

كان جميع الموظفين في الشركة ينتظرون حدثا سعيدا يدخل السرور الى قلوبهم فصاحب الشركة ومديرها يريد ان يقيم احتفالا لابنه المهندس العائد من جامعة الـأم أي تي الاميركية وانخراطه في العمل واستلام الادارة في القريب العاجل. كان الجميع يحلمون بانطلاقة جديدة تجعلهم يعبرون عن امكاناتهم بشكل افضل واكثر انتاجية. وكان حسام قد ابلغ المدير سرا بأنني ابدعت قصيدة عصماء يجدر ان تنشد في هذه المناسبة. ابتدأت الحفلة بكلمة وجدانية للمدير رحب فيها بابنه راسما الخطوط العريضة لافق ذلك العهد الجديد الواعد. بعدها وقف حسام يقول ان في الشركة اناس لا يكتفون بهندسة الابنية والطرق ولكنهم بارعين في هندسة عواطفهم وافكارهم، فسليمان قد صاغ لنا قصيدة رسمت بالكلمات صورة لالهة الحب والجمال في جبل لبنان وها هو يريد ان يقدمها اليكم.

انشدت قصيدتي برومانسية انعكست على صوتي وتعابير وجهي وكان الحضور يتأوهون ويصفقون اعجابا. ولكني وانا انشد الابيات التي تصف العينين والشفتين والابتسامة نظرت الى فتاتي التي ابدعت فخلتها ترمق حسام ولا ترمقني. كانت الموسيقى تسيل من عينيها دافئة متوهجة باتجاه حسام. عرفت ان فتاتي انجذبت الى حسام هذا الشاب اللعوب الداعر الذي لا يرفعى حرمة لامرأة فهو يتعامل مع النساء كما يتعامل الهاوي مع تجميع ورق البول.

ولكن ما حيلتي وانا الذي زرعت في دمها بذور الحرية، انا الذي اعطيتها شخصيتها المستقلة وعلي ان احترم اختياراتها. في هذه اللحظة تذكرت زميلتي ريما في صف البكالوريا وهي تقول لي سليمان انت تحلم بامرأة من عالم آخر. احبت صديقتي بلغة صامئة: الان عرفت الحقيقة التي غابت عني قديما عرفت انك انت فتاتي التي كانت بقربي وكنت افنش عنها في الافق البعيد. في نفس اللحظة اقتربت من المدير وطلبت منه اجازة استثنائية لمدة اسبوع فانا مضطر ان اغادر الى لبنان لاقابل شخصا على مقابلته يتوقف امر

مستقبلي. استغرب المدير طلبي ولكنه تحت تأثير الخمر والفرح قبل فورا. وصلت الى بيروت وهرولت مسرعا الى بيت ريماء في الجبل، قرعت الباب وانا الهث بعد ان تسلقت الدرج ركضا ففتحت امها الباب وقفت متصنما في مكاني نظرت الي مليا ثم قالت: انا اعرفك جيدا اسرعت اقول لها منذ عشر سنوات دخلت بيتكم. هزت الام رأسها وقالت كيف لا اذكر وانا التي كنت ارقبك وريما في الحديقة.. ولكنك انت الذي نسيت.. وانا ارتشف القهوة سألتها اين ريماء.. هل تزوجت.. هل سافرت.. اجابتنى الام تخرجت من الجامعة وتوظفت، وانطوت على نفسها صديقها الكتاب، اتى الكثير من العرسان وعبثا حاولوا نيل ودها.. ناجحة في عملها مهذبة في مسلكتها.. خفيفة الظل شافة تحب الجميع ويحبها الجميع ولكنها حزينة في اعماقها وكأن في داخلها جرح لا يلتئم. في هذه اللحظة دخلت ريماء المنزل.. انتصبت واقفا وتوقفت بدورها حدقت في عينيها مليا ومليا حدقت بي، كادت تتكلم ثم امتنعت.. اقتربت منها حدقت في عينيها اكثر.. ابتسمت لها.. ضحكت.. مددت ذراعاي واحتضنتها صحت بأعلى صوتي.. ريماء يا حبيبتي الغالية.. اضع نفسي واضعتك عشر سنوات.. سامحيني لن افارقك بعد اليوم لحظة واحدة.. ريماء هل تذكرين قبلة الحديقة.. نظرت معاتبة وقالت كانت زاد معادي في هذه السنوات العشر. اتت الام واحتضنتنا جميعا.. جلسنا نشرب قهوة جديدة كلمت والدي في الهاتف قلت له تهيأ ووالدتي فغدا ستقرأون الفاتحة وتجدون ابنكم عريسا وبعد سنة ترون الاحفاد.

اخبرت ريماء بقصة القصيدة، وحسام ذلك الداعر المتلاعب بعواطف الفتيات، ضحكت كثيرا والحت ان انشدها القصيدة التي اعادتني اليها، حاولت ان اتملص ولكنها الحت مستعطفة فقلت بل سأنشدك المقطع الاول فقط انها موشحة اندلسية.

قلبي المكلوم سهم البصر
ابصرت عيناى وهج الدرر
فوق خديه ورود تهمس
ساطع من ثغره ينبجس
وهو ليل رق منه الملمس
البس الليل ثياب السحر
فهو خمر في كؤوس العنبر

يا حبيبي ذاب قلبي اذ رما
فقوادي فيه عيد كلما
شادن اذ مر بي الطرف حنا
حبذا منه بريق كالسنا
فهو كالفجر خجول اذ رنا
فيه ثغر فاتن ان بسما
اسمر الحوة معسول اللمى

كمال يوسف سري الدين